أنطوان شلحت(*)

«أدب النهايات» الإسرائيلي- البدايات والصيرورة!

مدخل

يرمي هذا المقال إلى تسليط الضوء على ما يمكن أن نطلق عليه تسمية «أدب النهايات» الإسرائيلي الذي يشهد في الآونة الأخيرة نموًّا وازدهارًا كبيرين، بموازاة استجلاء دلالات هذا الأدب في نطاق حقل المعاني المُستمد تحديدًا من علاقة الكاتب بالواقع المعيش ووقائعه. وبالتالي لا يسعى المقال إلى أن يقدّم قراءة بأدوات النقد الأدبي المُتعارف عليها لهذا النوع من الأدب.

ويبيّن المقال أن ممارسة كتابة هذا النوع من الأدب بدأت على نحو جليّ منذ ثمانينيات القرن العشرين الفائت، وجاءت على خلفيات متعدّدة أهمها أن الكتابة التي «تنشُد النُطق بالحقيقة» و«تتطلع إلى الأنقى» لا يمكنها أن تتعايش مع أي خنق مقصود لمقومات الحياة ومع أي قمع للحرية فتعبّر عن تململها من خلال استشراف إحالات هذا الخنق وذلك القمع ضمن رؤيا سوداوية تحمل أكثر من نذيـر سوء.

ويستنتج المقال أن هذه الخلفيات هي نفسها التي تقف وراء الصيرورة التي بلغها هذا الأدب في الأعوام الأخيرة، كما تدل على ذلك أحدث نماذجه.

الكاتب كـ «مستشرف سوداوي»!

في أحد الحوارات الأخيرة مع الكاتب التركي نديم غورسيل (طالع «ملحق الثقافة»، صحيفة «العربي الجديد»، ٢٢/٩/٢٠١٥) أعرب عن اعتقاده بأن صفحة «الأدب الملتزم» طُويت مع المفكّر والأديب الفرنسي جان بول سارتر، بصفته أبرز المُنظّرين لهذا الأدب، وذلك عشية الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩– ١٩٤٥). كما رأى أن على الكاتب، قبل أي شيء، الالتزام بعمله في كتابته الخاصّة. لكن في الوقت

(*) من طاقم المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية «مدار».

ديستوبيا مفهوم فلسفي عكس فكرة اليوتوبيا، ومكان الديستوبيا هو السيئ الكئيب الذي يوجد فيه الفقر والظلم والمرض. وكمصطلح يُستخدم ديستوبيا على وجه خاص بغية الإشارة إلى مجتمع وهميّ موجود غالبًا في بيئة مستقبلية سيئة، وتكون اتجاهاته وغاياته متشائمة ورهيبة.

ولعلّ أشهر من تناول فكرة الديستوبيا في الأدب العالمي الحديث هو جورج أورويل في روايته الأبرز «١٩٨٤».

عينه شدّد على أن الكاتب باعتباره مواطنًا، لديه أمور وآراء ليقولها عن العالم والمجتمع عامة. والأمر الأكيد– في قراءة غورسيل– أن الكاتب لا يعيش في برج عاجيّ، بل في مجتمع وله دور يؤدّيه، غير أنه ليس هو الذي عليه إنقاذ الوطن، ولا تشييد أيام قادمةٍ وواعدة.

وقبل أن أطلّع على هذا الحوار بعدة سنوات قرأت تحقيقًا صحافيًا مثيرًا لأحد الكُتّاب العرب (جهاد الترك، ٢٠١٠) حول روائيين أميركيين تحاشوا بالضبط ما يدعو إليه غورسيل وربما غيره من الأدباء (ومؤداه التنائي عن «تشييد أيام قادمة واعدة» في نتاجهم)، بيد أنهم في ذات الوقت نحوا منحى اختراع سيناريوهات سوداوية لزوال البشرية فيما يمكن إدراجه ضمن جانر «أدب النهايات» أو الديستوبيا.

وللمعلومية: ديستوبيا مفهوم فلسفي عكس فكرة اليوتوبيا، ومكان الديستوبيا هو السيئ الكئيب الذي يوجد فيه الفقر والظلم والمرض. وكمصطلح يُستخدم ديستوبيا على وجه خاص بغية الإشارة إلى مجتمع وهميّ موجود غالبًا في بيئة مستقبلية سيئة، وتكون اتجاهاته وغاياته متشائمة ورهيبة.

ولعلّ أشهر من تناول فكرة الديستوبيا في الأدب العالمي الحديث هو جورج أورويل في روايته الأبرز «١٩٨٤».

قدّم أورويل رواية «١٩٨٤» في العام ١٩٤٩ وتنبأ من خلالها بمصير العالم الذي ستحكمه قوى كبيرة تتقاسم مساحته وسكانه ولا توفّر أحلامهم وطموحاتهم بل تحوّلهم إلى مجرد أرقام في جمهوريات «الأخ الأكبر» الذي يراقب ويعرف كل شيء، حيث تمثل سلطته الحُكم الشمولي.

وقد وصف أورويل بشكل دقيق تحوّل القيم البشرية إلى أشياء هامشية، ومن ثم سطوة الأحزاب السلطوية والشمولية على الناس والشعوب ليكونوا مجرد أرقام هامشية في الحياة بلا مشاعر ولا عواطف وليست لديهم طموحات أو آمال، حيث يعملون مثل الآلات خوفًا من «الأخ الأكبر» ولكي ينالوا رضاه كونه يراقبهم على مدار الساعة.

كانت هذه الرواية في وقت من الأوقات تُعدّ ثورية وخطرة سياسيًا مما أدى إلى منعها من المكتبات في عدد من الدول التي كانت محكومة بحكومات شمولية كروسيا وحتى غيرها من الدول.

وقد اختارت مجلة «التايم» الأميركية هذه الرواية كواحدة من أفضل مئة رواية مكتوبة بالإنكليزية منذ العام ١٩٢٣ وحتى الآن. وتمت ترجمتها إلى ٦٢ لغة.

تدور أحداث الرواية في المستقبل في مدينة لندن عام ١٩٨٤ حيث يعيش وينستون سميث، وهو موظف في التاسعة والثلاثين من العمر ويعمل موظفاً في وزارة الحقيقة، أي صحافي يراقبه رجال الشرطة ويراقبه جيرانه برغم أنه ليس مجرمًا وليس مُلاحقًا، لكن الرقابة هنا نوع من السلوكيات اللاإرادية التي يقوم بها الجيران ضد جيرانهم لذلك يصبح سميث تحت عين أوبرين صديقه وعضو الحزب الذي يراقبه عن كثب.

يميل سميث إلى زميلته في العمل جوليا التي ترتدي حزامًا قرمزيًا يرمز إلى عضويتها في الاتحاد ضد الجنس الآخر والقاسم المشترك بينها وبين سميث هو كره الحزب الذي يمنعهما من الالتقاء أو الزواج ولكنهما يلتقيان سرًا، وعندما يُكتشف أمرهما يُرسلان إلى وزارة الحب التي هي نوع من مراكز التأهيل للعودة إلى حياة الوحدة دون حب الآخر ويفصل سميث عن جوليا، بل يتعرض إلى تعذيب نفسي شديد وعبر صور مرعبة، وتحت هذا الضغط الشديد يصرخ سميث مطالبًا بمعاقبة جوليا حبيبته.

وضع أورويل في الرواية بعض الرموز منها حزام سكارليت ـ وهو شعار الاتحاد ضد الجنس الآخر– الذي يرتديه أعضاء الحزب ليعطيهم شعار العزوبية ولكنهم يبقون مشوشين من الداخل، وهناك الرمز ١٠١ وهو لغرفة تعذيب نهائية في مركز التأهيل في وزارة الحب التي تقابلها وزارة الحقيقة. وجميعها رموز وهمية لسلب الإنسان إنسانيته وتحويله إلى رقم ضمن قطيع بشري.

وتقوم وزارة الحقيقة بواسطة كادرها الكبير بتغيير البيانات

والمعلومات الموثقة على مدار الساعة لتتماشى مع إستراتيجية وأهداف الحزب والحكومة بقيادة «الأخ الأكبر»!. فهناك موظفون يقومون بحذف كل الوعود المحرجة من الأرشيفات الصحافية، واستبدالها بتنبؤات مذهلة.

وبالعودة إلى التحقيق الصحافي العربي السالف ذكره، يجدر بنا ذكر إشارة وردت في سياقه تلفت النظر إلى أن الروايات الديستوبية التي كان الحديث يدور حولها في ذلك الوقت ضمن سيرورة اختراع سيناريوهات سوداوية لزوال البشرية، وضعها كتاب أميركيون فقط. وعلى هذا الأساس استنتج كاتب التحقيق أنها سيناريوهات من صنع المخيلة الأميركية بامتياز. وقد تبدو أيضًا استجابة، بشكل أو بآخر، لنمط من الحداثة السياسية والاقتصادية والتكنولوجية التي تختلف، في الجوهر، إذا ما جاز التعبير، عن مثيلتها الأوروبية، غير أنها لا تتخلى عن موقعها في فلك الثقافة الغربية عمومًا. وقد ظهرت جميعًا باستثناء واحدة منها في العقد الأول من الألفية الثالثة الحالية.

لقد شدّني هذا التحقيق في حينه أكثر شيء لأني قبله بسنوات كنت منهمكًا في متابعة هذا الجانر ضمن الأدب المكتوب بالعبرية في إسرائيل.

وخلال هذه المتابعة تبيّن لي أن هذا الأدب أخذ يتجه نحو ما أسميته «الرؤيا القيامية» (الأبوكاليبتية) بصورة واضحة منذ بداية ثمانينيات القرن العشرين الفائت، والتي يصحّ اعتبارها بمثابة فترة بدايات «أدب النهايات» الإسرائيلي.

البدايات: القياميّ كدلالة مضادة لليوتوبيّ!

في كتاب «النهايات» (صدرت نسخته العربية في العام ١٩٩٩ عن «دار قدمس للنشر والتوزيع» في سورية بترجمة أنجزها ميشيل كيلو وراجعها زياد منى) يعالج الباحث الألماني ديتر تسمرلينغ الهوس القياميّ الألفيّ محيلًا إياه إلى جملة «أسباب وجيهة»، يعتبر كل سبب منها قمينًا بقراءة خاصة معمقة تضبط إيقاعها على وقائع التاريخ وصيرورة التفكير العلمي لدى البشر.

ومع أن النسخة العربية من هذا الكتاب صدرت قبل أحداث الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١ في الولايات المتحدة بسنتين أو أكثر فان «الوهج» الذي أعادته تلك الأحداث، بكيفية ما، إلى الأدب القياميّ (الأبوكاليبتي) في النصّ المكتوب، وأكثر فأكثر في الفنون المشهدية، ليس مفتقدًا داخل سطورها وبينها، وتحديدًا من حيث الإشارة إلى انطواء ذلك الأدب، في المعتاد، على نزعة رؤيوية، برغم

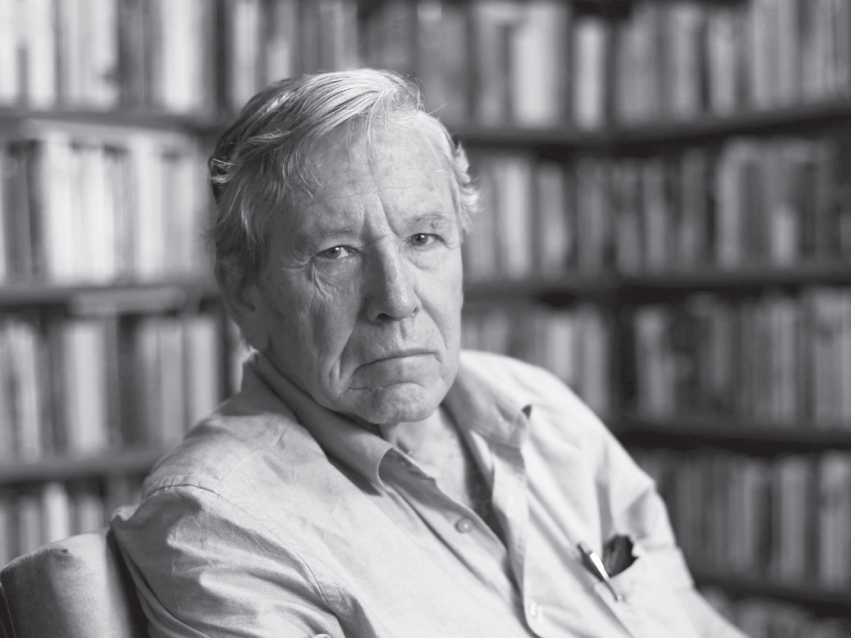

البداية القيامية مع عاموس عوز في «الطريق إلى عين حارود».

متضمناتها من التفاصيل الممتعة، فإنها تقول بالفناء أو بانتقال الزمان من طور أسود إلى طور أشد سوادًا.

ولدى محاولة تقريب المسألة من الموضوع الذي في نيتنا الخوض فيه، بمنأى عن أحداث ذلك اليوم الأسود في الحادي عشر من أيلول، لكن غير بعيد عن خلفيات تلك الأحداث، نرى إلى أن الأدب الإسرائيلي المكتوب بالعبرية أخذ ينحو منحى الرؤيا القيامية، بصورة واضحة، منذ بداية ثمانينيات القرن العشرين الفائت.

ويمكن، في هذا الصدد، أن نعتبر رواية «الطريق إلى عين حارود» التي كتبها الأديب الإسرائيلي عاموس كينان من النماذج الأولى التي في مقدورنا تأطيرها ضمن خانة هذا «الجانر» من الأدب، بل وأيضًا شكلت إرهاصًا به (كنت قد ترجمت هذه الرواية إلى العربية وصدرت في العام نفسه لصدورها باللغة العبرية– ١٩٨٤– في مجلة «الكرمل» الفصلية الثقافية الفلسطينية، وعادت وصدرت في كتاب عن «دار الكلمة للنشر» في بيروت في العام ١٩٨٧).

تحكي رواية «الطريق إلى عين حارود» قصة مواطن إسرائيلي، يُفترض أنه الكاتب ذاته، ومحاولته العسيرة المشبعة بالعثرات والمغامرات للهروب من تل أبيب (في وسط إسرائيل) والوصول إلى عين حارود في الشمال، وهي البقعة الوحيدة الباقية المُحرّرة من نير حكم الجنرالات الذين انقلبوا على نظام الحكم في إسرائيل وأخذوا يرتكبون موبقات مماثلة لما يرتكبه جنرالات «العالم الثالث»، من تعطيل للبرلمان وإغلاق للصحف وعزل لإسرائيل عن العالم الخارجي، ناهيك عن فرض نظام حظر التجوال.

ويدرك هذا الإسرائيلي الساعي إلى «نقطة الضوء» الأخيرة، في وعيه التام، أنه لا يستطيع بلوغ عين حارود إلا بمساعدة الفلسطيني محمود (وحول هذا يقول: «يتعين عليَّ أن أجد عربيًا... كل خطتي

إن رواية «الطريق إلى عين حارود» كانت بمنزلة «نبوءة» أطلقها عاموس كينان في العام ١٩٨٤ عن إسرائيل ما بدا وقتئذ أنها مبنية للمجهول، غير أنها بنظرة راهنة النبوءة التي تحققت بدءًا من العام ٢٠٠١، وهو العام الذي أصبح فيه أريئيل شارون (الجنراليسمو)، بعد أن حدث كل ما حدث، رئيسًا للحكومة الإسرائيلية. وليس هذا فحسب وإنما أيضًا أصبحت إجراءاته غير الديمقراطية (باللغة الملطّفة) مسوّرة كذلك بـ«جدار واقٍ» من شبه «إجماع قوميّ» أصمَّ يشكو من ندرة أصحاب المواقف الليبرالية أو، على الأصح، يشكو من ندرة تأثير أصحاب هذه المواقف الليبرالية في المناخ السياسي الرائج.

للهرب مبنية على العرب»)، لكون العربي يعرف مسالك الطرق من ضمن أشياء أخرى مهمة.

في السياق اللاحق لهذه الرواية يعثر الكاتب على «محموده»/ شخصيته العربية.

وتجري بين الاثنين خلال رحلتهما مواقف عديدة وتدور حوارات شتى ليست متحررة، بدورها، من إسار «الأخطاء العظيمة» التقليدية في مثل هذا المقام. بيد أنها برغم ذلك لا تحجب حقيقة كون الإدراك السالف هو بمثابة «وعي مبكّر» لدى عاموس كينان تحديدًا بأن بلوغ عين حارود، وهي كما ذكرنا البقعة النظيفة الباقية، المُحرّرة والإنسانية وغير العنصرية، وبكلمات أخرى بلوغ الحل الديمقراطي والإنساني الشامل للصراع بين الشعبين، لن يتم إلا بمساهمة العرب الفلسطينيين كشركاء على قدم المساواة.

اعتبرت هذه الرواية في حينه ضربًا من الخيال أو الكابوس الذي ينوء الكاتب تحت كلكله لأسبابه المخصوصة.

وذهبت بعض المقتربات السياسية للرواية، وهي التي تهمنا في هذا المقال، إلى أبعد من ذلك، إلى حدّ القول بإطلاقية إن إمكان حدوث وقائع الرواية في الواقع مستحيل لأن إسرائيل «دولة ديمقراطية مكينة» تمتلك من الضوابط ما يكفي كي تسدّ الطريق على وصول العسكر إلى سدّة الحكم، كما يحدث في الدول النامية العالمثالثية.

لكن ما الذي يمكننا قوله عن هذه الرواية في هذا الميدان المحدّد؟.

إذا ما شئنا اختصار المواصفات، نستطيع القول إن رواية «الطريق إلى عين حارود» كانت بمنزلة «نبوءة» أطلقها عاموس كينان في العام ١٩٨٤ عن إسرائيل ما بدا وقتئذ أنها مبنية للمجهول، غير أنها بنظرة راهنة النبوءة التي تحققت بدءًا من العام ٢٠٠١، وهو العام الذي أصبح فيه أريئيل شارون (الجنراليسمو)، بعد أن حدث كل ما حدث، رئيسًا للحكومة الإسرائيلية. وليس هذا فحسب وإنما أيضًا أصبحت إجراءاته غير الديمقراطية (باللغة الملطّفة) مسوّرة كذلك بـ«جدار واقٍ» من شبه «إجماع قوميّ» أصمَّ يشكو من ندرة أصحاب المواقف الليبرالية أو، على الأصح، يشكو من ندرة تأثير أصحاب هذه المواقف الليبرالية في المناخ السياسي الرائج وما يستجرّه من موبقات تطول أيضًا الأوضاع الإسرائيلية الداخلية العامة برشاشها.

بعد رواية كينان هذه صدرت أعمال أدبية إسرائيلية باللغة العبرية تندرج هي أيضًا في إطار الأدب الأبوكاليبتي.

ومن أبرز هذه الأعمال يمكن ذكر رواية «فندق يرمياهو» لبنيامين تموز، ورواية «الملائكة قادمون» ليتسحاق بن نير.

في الأحوال جميعًا، فإنه حتى العام ٢٠٠٥ كان النظر إلى هذه الأعمال الأدبية القيامية باعتبارها ظاهرة في الأدب الإسرائيلي الحديث ضربًا من المبالغة التي تنطوي على مجازفة، غير أن تلك النماذج القليلة من الأدب العبري القياميّ التقت عند مفترق واحد يتمثل في كونها تشكّل تأويلات مجازية أو استعارية للوجود المحدّد. وينسجم مع هذا، ولعله الأمر الأشد أهمية، أن هذه الأعمال تشكل في جانب معين الدلالة المضادة، يمكن القول المستحقّة، للنماذج اليوتوبية (أو الطوباوية) في هذا الأدب والتي كان حافلًا بها منذ نشوء الحركة الصهيونية واعتماد مشروعها الكولونيالي في فلسطين، وجاءت بعض كتب مؤسس هذه الحركة ثيودور هرتسل («ألطنويلاند» و«دولة اليهود» مثلًا)، أشبه بإنباء مدوّ بما تلاها في هذا المضمار.

ومسألة الحكم بكونها مستحقّة تكمن مشروعيتها فحسب في ما بدأ التعبير عنه بقوة أكبر بعض الكتاب والمثقفين الإسرائيليين

بطبيعة الحال من شأن أزمة بخار أن تحيل، في الوقت ذاته، إلى قدر من الخفّة في التفكير لدى أمثاله ممن يفترض فيهم أن يكون تفكيرهم أكثر عمقًا واستحصالًا، خصوصًا وأنه اكتفى من الاستنتاج الأخير بمجرّد التساؤلات السالفة، التي أوردناها كما هي، بعد أن وضع يده في سياق مقالته على حقائق تعتبر دلالات مضادة على ما يقول وتوضّح أنه ما كان من الممكن أن تعني الصهيونية، فكرًا وممارسة، في واقع الأمر، سوى «ضمّ المناطق (المحتلة منذ العام ١٩٦٧) والاستيطان فيها»، بعد أقل من عشرين عامًا على إنشاء الدولة العبرية، وسوى «تكريس الكراهية للإنسان العربي لمجرّد كونه كذلك».

من تشكيك بالممارسة والمسلمات الصهيونية على وجه الخصوص، وتحديدًا بعد الحرب الإسرائيلية الأولى على لبنان، التي تشكّل شبه إجماع لديهم على أن إسرائيل كانت البادئة بشنّها في حزيران ١٩٨٢ .

وعلى سبيل المثال فإن ما كتبه في ذلك الوقت الكاتب والصحافي الإسرائيلي أهارون بخار ضمن إحدى حلقات زاويته الأسبوعية «بروفايل» (ملامح عامة)، التي ظل ينشرها في جريدة «يديعوت أحرونوت» حتى وفاته في أواسط ثمانينيات القرن الفائت، يسعف في توضيح أبعاد ما نقصد من اعتماد توقيت تلك الحرب على لبنان.

حملت هذه الحلقة (ظهرت في ١٠ كانون الأول ١٩٨٢) عنوان: «صهيونية ليست بين مزدوجين»، وحاول بخار من خلالها أن يستنطق مجايليه ممن شنفت آذانهم بسماع فكرة «الوطن القومي اليهودي» فسبقت عواطفهم عقولهم إليه، في لهجة هي مزيج من العتاب ومحاسبة الذات وإسقاط هموم الحاضر على الماضي.

ويستطيع القارئ أن يشعر بأزمة هذا الكاتب من بين ركام الهواجس التي طرحها تحت تأثير الحرب السالفة وعلى هامش وقائع «المؤتمر الصهيوني الثلاثين»، الذي عقد في القدس بالتزامن مع تلك الفترة.

مهما تكن هذه الهواجس فان الخلاصة التي يتوصل إليها حملت الاستنتاج التالي:

«إذا كانت الصهيونية تعني ضمّ المناطق (الأراضي الفلسطينية المحتلة منذ العام ١٩٦٧) والاستيطان فيها وترسيخ الكراهية الأبدية بين إسرائيل والعالم العربي فأعتقد أنه يتعين عليَّ أن أتخلى عن هذه الحركة... لقد جئنا إلى البلاد كي نبنيها ونبني أنفسنا، لا لتشريد شعب آخر والعيش على خرائبه القومية. وأسسنا القوة الدفاعية العبرية حتى لا نعيش على أسنّة الحراب... عندما أتفحّص واقع حياتنا أجدني متسائلًا، بالأساس بيني وبين نفسي، هل ما زلت صهيونيًا؟ وماذا تعني الصهيونية؟ وما هي ماهيتها في الربع الأخير من القرن العشرين؟».

بطبيعة الحال من شأن أزمة بخار أن تحيل، في الوقت ذاته، إلى قدر من الخفّة في التفكير لدى أمثاله ممن يفترض فيهم أن يكون تفكيرهم أكثر عمقًا واستحصالًا، خصوصًا وأنه اكتفى من الاستنتاج الأخير بمجرّد التساؤلات السالفة، التي أوردناها كما هي، بعد أن وضع يده في سياق مقالته على حقائق تعتبر دلالات مضادة على ما يقول وتوضّح أنه ما كان من الممكن أن تعني الصهيونية، فكرًا وممارسة، في واقع الأمر، سوى «ضمّ المناطق (المحتلة منذ العام ١٩٦٧) والاستيطان فيها»، بعد أقل من عشرين عامًا على إنشاء الدولة العبرية، وسوى «تكريس الكراهية للإنسان العربي لمجرّد كونه كذلك».

وتوضح الحقائق نفسها كذلك أن الصهيونية قد خططت ونفذت عمليات تشريد الشعب الآخر لبناء «الوطن القومي العبري» على أنقاض خرائبه القومية، حتى من قبل أن ترتكب «إثم» ذلك الضم لمناطق ١٩٦٧ .

بيد أن أهمَّ جذور الإخفاق، الذي يهجس في صدر بخار، إنما يكمن في جملة التناقضات بين مزاعم الصهيونية التضليلية، وهي تروّج لغاية استعمار فلسطين، وبين المعطيات الأكيدة التي تفقأ العين على أرض الواقع. وهي التناقضات بين اليوتوبيا المثال وبين الواقع.

إن أول هذه المزاعم التضليلية أن فلسطين خالية من السكان، عاجّة بالقفار والمستنقعات، وأن هجرة اليهود إليها لن تكون سوى

على النسق نفسه، الذي سار بخار على منواله، فإن العودة إلى اليوتوبيات الصهيونية الأولى تتيح للقارئ الموضوعي إمكان ملامسة الجذور الحقيقية للأدب القياميّ دونما حاجة حتى إلى عناء التنقيب.

إن واحدًا من هذه الجذور يبقى شديد الأهمية- إنه ذلك الجذر الذي يحيل إلى أن «التفكير بفلسطين» كعنوان مشتهى لإنشاء «الوطن القومي» لليهود لم ينصبّ، ضمن الأشياء التي انصبّ فيها، على النتيجة شبه الحتمية لتحقيق تلك الغاية، وهي سلب البلاد من أهلها الأصلانيين وتشريدهم عنها.

«هجرة شعب بلا أرض إلى أرض بلا شعب»، حسبما زعم قادتها.

ونصادف بخار نفسه يقرّ بذلك، فيكتب قائلًا: «شأني شأن كثيرين آخرين غيري وصلوا إلى البلاد دون أن يعرفوا عنها معلومات كثيرة كان غريبًا عليَّ أن أواجه عريًا هنا. لم أفهم عما كانوا يبحثون هنا. لقد غسلوا مخّنا، طوال سنوات، بالادعاء الأحمق أن هذه البلاد انتظرتنا بقفارها مدة ألفي عام وأنها كانت خالية ومهجورة. وأصابت الدهشة الكثيرين منَّا بعد أن وجدنا فيها الشعب الشقيق. وبرغم ذلك لم يتعودوا عليه حتى يومنا هذا تقريبًا. لكنهم (العرب) هنا. وهم مغروسون جيدًا في أرضهم وموثقون بها بتلك السلاسل التي تربط الإنسان بأرضه ووطنه. وإذا لم تعرف الصهيونية كيف تتأقلم مع حقيقة وجودهم هنا فإنها تضع كل مشروع الانبعاث اليهودي في أرض إسرائيل (فلسطين) في خطر مستمر»!

والزعم التلفيقي الثاني هو ما «بشَّر» به هرتسل في روايته «ألطنويلاند» (الأرض القديمة الجديدة) حين ذكر، وهو يحاول أن يؤمثل الواقع في فلسطين لإغراء اليهود في «الدياسبورا» للهجرة: «إننا نرى هنا (يقصد في فلسطين) صورة جديدة لحياة مجتمع جديد مُنظم لإسعاد الناس أكثر مما كانوا عليه في السابق»(!).

فأين من هذه «البشرى»، بالنسبة إلى اليهود أنفسهم، حقيقة الواقع الكابوسي في هذا «المجتمع الجديد»؟.

إذا بحثنا عن الإجابة لدى بخار فإننا نعثر عليها واردة على الوجه التالي:

«لقد أراد آباء الصهيونية (المؤسسون) أن يمنحوا الشعب اليهودي الأمن المطلق. لكن ها هي ذي البلاد، التي تحقق فيها الحلم الصهيوني واستحال إلى واقع سياسي ملموس، هي المكان الأقل أمانًا لليهود. ففي أي مكان في العالم، بما في ذلك الأقطار ذات الأنظمة الثيوقراطية المتطرفة، لم يسفك في العقود الثلاثة الأخيرة دم يهودي بالمقدار الذي سفك فيه في أرض إسرائيل»! (وهذه الحصيلة مستمرة إلى يومنا هذا).

على النسق نفسه، الذي سار بخار على منواله، فإن العودة إلى اليوتوبيات الصهيونية الأولى تتيح للقارئ الموضوعي إمكان ملامسة الجذور الحقيقية للأدب القياميّ دونما حاجة حتى إلى عناء التنقيب.

إن واحدًا من هذه الجذور يبقى شديد الأهمية– إنه ذلك الجذر الذي يحيل إلى أن «التفكير بفلسطين» كعنوان مشتهى لإنشاء «الوطن القومي» لليهود لم ينصبّ، ضمن الأشياء التي انصبّ فيها، على النتيجة شبه الحتمية لتحقيق تلك الغاية، وهي سلب البلاد من أهلها الأصلانيين وتشريدهم عنها.

عند هذا الحدّ يجدر بنا استعادة ما قاله أكثر من باحث في تاريخ الصهيونية من منظور اجتماعي– ثقافي جديد حول انعدام بديل راديكالي أو ثوري لما تم طرحه من غايات قصوى لعملية استعمار فلسطين.

ونظرًا إلى أننا نتناول الأدب اليوتوبي فان ما ينبغي الالتفات إليه، أكثر شيء، هو أن المناظرة حول السمات الأساسية لـ«اليوتوبيا الصهيونية» جرت منذ البداية بين فريقين غير متكافئين:

- الفريق الأول ضم أولئك الذين، على هدي من أفكار هرتسل حول عملية الاستعمار في فلسطين واعتمادًا على الإمبراطورية القائمة وقتئذٍ وصلاتهم بها، شرعوا في تحقيق أهدافهم في غضون أقصر فترة ممكنة. وبرغم وجود اختلافات لا يمكن إنكار أهميتها بين الصهيونية اليمينية واليسارية حول الأولويات والوسائل إلا إنهما شكلتا جزءًا من هذا الفريق الأول وكانتا على اتفاق حول العقائد الأساسية للصهيونية السياسية.
- الفريق الثاني ضمَّ طاقمًا متنافرًا من الليبراليين والاشتراكيين والشيوعيين، الذين وجدوا طريقهم إلى

في معظم نماذج الأدب الأبوكاليبتي الإسرائيلي المنشور في ذلك الوقت (وحتى العام ٢٠٠٥)، لم يتجاوز القلق من جراء فقدان «اليوتوبيا الصهيونية»، المنثور بتورية ما فيه، سقف الافتراض بـ «وجود حلم صاف وبريء أصبح بطريقة ما ملطخًا». ولذا لا يتم، في المعتاد، إلقاء اللوم على ماهية ذلك «الحلم» وإنما على طريقة تحقيقه «التي لم تكن في مستوى الجنة الموعودة». بينما الحقيقة البسيطة تقول إن ذلك «الحلم» ولد ملطخًا أصلًا لأن صدعًا مميتًا كان في صميم تكوينه

فلسطين ربما بسبب العداء للسامية في أوروبا أساسًا، وليس بسبب عاطفة صهيونية مشبوبة.

ويؤكد الباحث والأستاذ الجامعي الاسرائيلي حاييم بريشيت، في سياق دراسة له حول «صورة الذات والآخر في الصهيونية– فلسطين وإسرائيل في الأدب العبري الحديث» (ظهرت ترجمتها العربية في كتاب «هوية الآخر»، من إعداد الكاتب والباحث الفلسطيني حسن خضر، ١٩٩٥) أن الصراع بين الفريقين المذكورين لم يكن صراعًا حول الاتجاه بين السائد وبين البديل، إذ كان على البديل بالضرورة أن يوجد خارج الصهيونية وألا يقدّم معارضة لها فحسب بل أيضًا برنامجًا بديلًا. لكن ذلك البديل لم يوجد داخل الطائفة اليهودية في فلسطين (اليشوف)، ولم يوجد على الأقل كجماعة تحظى بأدنى نفوذ سياسي وثقافي حقيقيين. ولذلك جرت المناظرة، في أقصى حدودها، بين أشكال عدوانية صهيونية مهيمنة وبين فريق من النقاد الذين بدلًا من أن ينأوا بأنفسهم عن الاتجاه الصهيوني ومحاربته على طول الخط كانوا إصلاحيين ولم يكونوا راديكاليين أو ثوريين. وربما نطلق على نقد من هذا النوع تسمية النقد التجميلي، لأن خلافاته تمركزت حول الطرق والوسائل وليس حول الغايات.

وثمة عرض واضح وصريح جدًا للعلاقة غير المتضادة، كي لا نقول غير القطبية، بين الاتجاه المهيمن وبين نقاده في كتاب عاموس عوز «في ضوء السماء الساطعة الزرقة» (١٩٧٧)، الذي راح في أحد مقالاته يشرح كيفية قيام شراكة من نوع ما بينه وبين دعاة «أرض إسرائيل الكبرى» فيما يتعلق بالنظرة إلى الفلسطيني.

ويرى بريشيت أن فعلة عوز هذه تعبر عن وضع فريد حقًّا لكل شخص يريد الإيهام بأنه نشيط على جبهة اليسار. زد على ذلك أنه بالنسبة لعوز وآخرين مثله في الجماعات اليسارية الصهيونية (في الطيف الذي يبدأ من حزب «العمل» حتى حركة «السلام الآن») تبدو المشاعر التي تربطهم باليمين اليهودي أقوى من أي ميول إيجابية لديهم تجاه الفلسطينيين. وهذا الإحساس بالانتماء ليس إلى اليسار، بل إلى تقاليد خلفتها قوى رجعية ويسيطر عليها الآن اليمين، قد يفسر صور فلسطين والفلسطينيين التي يخلقونها.

كما أن هذه العنصرية الكامنة هي التي تفسر لماذا لا يستطيع كفاح الإصلاحيين التجميليين، برغم أنه الأكثر مدعاة للتعاطف والقبول في منظومة قمعية، تقديم أي خيار حقيقي أو مقاومة ثابتة للفكر المهيمن.

إن مثل هذه السيرورة ليست مستمرة إلى يومنا هذا فحسب، بل إنها أيضًا راكمت ولا تنفك تراكم المزيد من «نقاط القوة» منذ انتفاضة أيلول ٢٠٠٠، بحيث يمكن ترجمة المعادلات السالفة إلى «حقائق سياسية كاملة» على الأرض.

ولعل هذا هو ما «يفسّر» في الوقت ذاته حقيقة أنه في معظم نماذج الأدب الأبوكاليبتي الإسرائيلي المنشور في ذلك الوقت (وحتى العام ٢٠٠٥)، لم يتجاوز القلق من جراء فقدان «اليوتوبيا الصهيونية»، المنثور بتورية ما فيه، سقف الافتراض بـ «وجود حلم صاف وبريء أصبح بطريقة ما ملطخًا». ولذا لا يتم، في المعتاد، إلقاء اللوم على ماهية ذلك «الحلم» وإنما على طريقة تحقيقه «التي لم تكن في مستوى الجنة الموعودة». بينما الحقيقة البسيطة تقول إن ذلك «الحلم» ولد ملطخًا أصلًا لأن صدعًا مميتًا كان في صميم تكوينه، وهذا الصدع قام ويقوم على «إنكار الآخر»، إذا ما شئنا استعمال التعابير المهذبة الحداثية.

الصيرورة الراهنة لأدب النهايات الإسرائيلي

في مقالته «البانورامية» حول «الأدب الإسرائيلي في سنوات الألفين»، المنشورة ضمن محور هذا العدد من «قضايا إسرائيلية»،

أضاف سارنا: «أنا لا أعتقد أن إسرائيل ستغدو فارغة من السكان في العام ٢٠٢٣ وإنما ستكون فارغة من الأمور التي تهمني أكثر بكثير من مجرّد وجود ثمانية مليون إنسان هنا. فالأمر المهم ليس العدد وإنما المضمون. من جهتي، ليكن عدد السكان ثلاثة ملايين يؤلف معظمهم الكتب ويتحدثون فيما بينهم. هل يساعدني أن يوجد هنا ١١-١٢ مليون يهودي وعربي يأكلون بعضهم بعضًا؟. هذا الكتاب هو تفكير حول الذي يغدو فارغًا من غايته، ومُجوّفًا من فكرة أن يعيش الأفراد هنا مثل البشر، وهذا أمر آخذ بالاختفاء».

يرى الناقد الإسرائيلي أريك جلاسنر أنه خلال أعوام العقد الممتد بين الأعوام ٢٠٠٥– ٢٠١٥ أنتج الأدب الإسرائيلي موجة من الأعمال القيامية (الديستوبية) بعضها جيد وبعضها أقلّ جودة.

ويضع جلاسنر يده على الدافع الرئيس الواقف وراء ازدهار هذا الجانر من الأدب، وفحواه أن هناك أمرًا ما في الواقع الإسرائيلي الآني، وليس فقط المنسول من ذاكرة الماضي، يثير الخوف والرعب والرؤى المروّعة حيال المستقبل.

لكن الناقد أصدر في الوقت ذاته حُكمًا جارفًا بما يشبه الإعدام على هذه الموجة بعد أن حسم جدالًا ما يزال دائرًا حول قيمة هذا الأدب من الناحيتين الفنيّة والجماليّة، مكتفيًا بالاستنتاج أن هذا الصنف من الأدب يعلمنا ليس فقط أنّ إسرائيل تنحو نحو التطرّف وتصبح أكثر تديّنًا بل وأيضًا أنها أصبحت أكثر تأمرُكًا (حيث أن هذه الكتابة هي صنف أدبي مزدهر في الثقافة الشعبية الأميركية وبالأساس في السينما كونها تتيح عرض تأثيرات مميّزة) كما أضحت أكثر لهاثًا وراء متعة الترفيه.

ويأخذ جلاسنر على كُتّاب هذه الموجة من الأدب أنهم ينتمون كلهم إلى الطرف اليساري من الخارطة السياسية، مع أنه لا يسقط ضرورة الإصغاء إلى النبوءات السوداء الخاصة بهذا الأدب «ولو من باب الحذر والحفاظ على الذات».

على أي حال، يمكننا أن نعتبر رواية «الثالث» للكاتب يشاي سريد الصادرة في هذا العام (٢٠١٥) آخر نماذج أدب النهايات الإسرائيلي.

«الثالث» يعني الهيكل الثالث الذي يُقام في المستقبل بعد أن تكون قنابل نووية دمّرت مدن الساحل في إسرائيل وفي مقدمها تل أبيب، ويقف على رأسه فلكيّ مرتدّ عن الدين يعيده التجلّي الإلهي في النقب إلى دين آبائه وينجح في توحيد من تبقّوا من الشعب حوله في منطقة الجبل، ويقوم الإسرائيليون الذين نجوا بطرد الفلسطينيين («العماليق») من البلاد ويؤسسون مملكة جديدة برئاسته ويبنون الهيكل الثالث ويعيدون ممارسة العبادة فيه، لكن بعد مرور نحو عشرين عامًا تتورّط «مملكة إسرائيل الجديدة» في حرب أخرى مع جيرانها العرب ينتج عنها خراب الهيكل الثالث.

وقبل «الثالث» ظهرت روايات مماثلة كثيرة، كان أبرزها على الإطلاق رواية «٢٠٢٣» ليغئال سارنا.

وسارنا الصحافي في «يديعوت أحرونوت» يعتبر واحداً من ألمع الصحافيين في إسرائيل. وهو يعرّف نفسه بأنه استقصائي لافتًا إلى أن هذا المسار يسعفه في الاستدلال على التيارات العميقة داخل المجتمع الإسرائيلي وخاصة في كل ما يتعلق بوجهة إسرائيل في المستقبل من جهة، وبعلاقتها مع الفلسطينيين من جهة أخرى.

وفضلًا عن تحقيقاته الاستقصائية التي تشكل شهادات مهمة

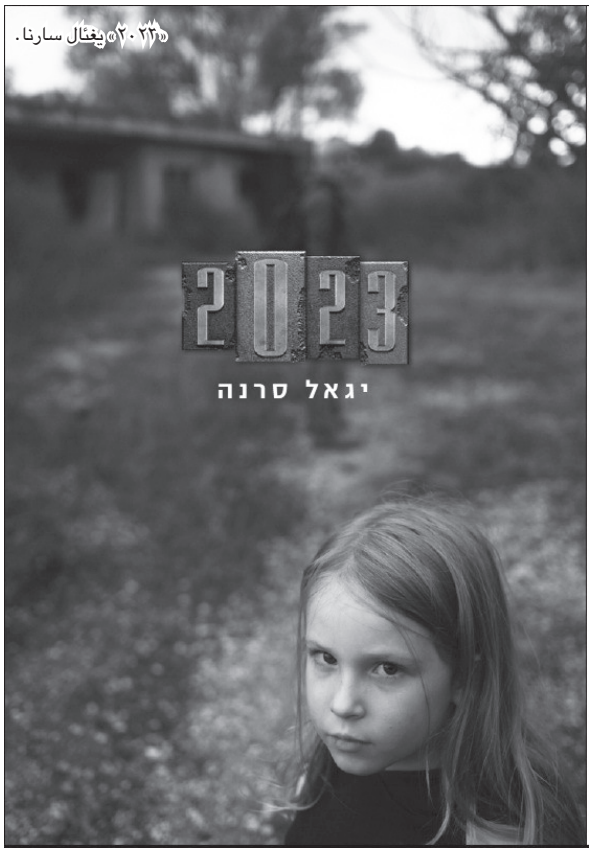

«٢٠٢٣» يغئال سارنا.

وليس بغير دلالة أن الرواية الثالثة («جبالًا أرى») تتناص مع نبوءات إرميا وخاصة قوله في الإصحاح الرابع «نظرت إلى الأرض وإذا هي خربة وخالية وإلى السموات فلا نور لها. نظرت إلى الجبال وإذا هي ترتجف وكل الآكام تقلقلت. نظرت وإذا لا إنسان وكل طيور السماء هربت. نظرت وإذا البستان برية وكل مدنها نُقضت من وجه الرب من وجه حُمُوّ غضبه».

على الواقع الإسرائيلي يكتب سارنا الرواية.

في حوار أجريته مع سارنا (راجع «قضايا إسرائيلية»، ٥٦، شتاء ٢٠١٤)، قال إن فكرة هذه الرواية راودته عندما كان في مدينة أكسفورد الإنكليزية، التي يسافر إليها كل عام من أجل الكتابة هناك، ويلتقي فيها دائمًا المؤرخ الإسرائيلي آفي شلايم. وهي تحكي قصة أب مسن وابنته الصغيرة، يخرجان في العام ٢٠٢٣ من الشقة التي يسكن فيها الكاتب منذ فترة طويلة في تل أبيب. وشخصية الأب هي الكاتب عمليًا. وهما موجودان في إسرائيل التي عادت (في العام ٢٠٢٣) لتكون كما كانت في العام ١٩٤٨، يسكنها ٦٠٠ ألف نسمة يعيشون داخل «سور وبرج»، وغالبية السكان غادرت، وبقي سكان في كيبوتس هنا وقرية عربية هناك، على غرار جسر الزرقاء. ووالدة البنت غادرت البلاد بحثًا عن والدها. وبعد ذلك يذهب الأب والبنت من هنا، من تل أبيب التي أصبحت فارغة من السكان، إلى جسر الزرقاء، حيث يتواجد بحار يهودي وآخر عربي، يعدان لهما زورقا سيحاولان الوصول بواسطته إلى قبرص عن طريق البحر الهائج.

أضاف سارنا: «أنا لا أعتقد أن إسرائيل ستغدو فارغة من السكان في العام ٢٠٢٣ وإنما ستكون فارغة من الأمور التي تهمني أكثر بكثير من مجرّد وجود ثمانية مليون إنسان هنا. فالأمر المهم ليس العدد وإنما المضمون. من جهتي، ليكن عدد السكان ثلاثة ملايين يؤلف معظمهم الكتب ويتحدثون فيما بينهم. هل يساعدني أن يوجد هنا ١١ – ١٢ مليون يهودي وعربي يأكلون بعضهم بعضًا؟. هذا الكتاب هو تفكير حول الذي يغدو فارغًا من غايته، ومُجوّفًا من فكرة أن يعيش الأفراد هنا مثل البشر، وهذا أمر آخذ بالاختفاء».

وردًا على سؤال: كيف وصل إلى الرقم ٢٠٢٣؟، قال سارنا: «بالصدفة، لقد راودني وحسب. وتبين لي لاحقًا أنه في العام ٢٠٢٣ سيكون قد مر ٧٥ عامًا على إقامة إسرائيل و٥٠ عامًا على حرب يوم الغفران (حرب تشرين/ أكتوبر ١٩٧٣). لم أنتبه إلى ذلك في البداية. وأعتقد أنه إذا ما استمر اليهود المتدينون المتعصبون في محاولة تحريك الأقصى وبناء الهيكل، فإن قصة إسرائيل ستنتهي، لأنه في كل مرة تم فيها بناء الهيكل حلّ الخراب. يجب أن يكون الهيكل موجودًا في الرأس وليس مصنوعًا من الحجر. وعمومًا، الأنظمة التي تبدأ في تشييد مبان ضخمة جدًا، فإنها تفعل ذلك عندما تواجه مصائب. ولذا فإنني أعتقد أنه إذا أصررنا على الذهاب في طريق الدين، فإن هذا المكان سيكون مصيره الخراب».

وبالتزامن مع صدور رواية «٢٠٢٣» صدرت رواية أولى لكاتب إسرائيلي شاب هو روعي بيت ليفي بعنوان «جبالًا أرى».

ينطلق بيت ليفي في هذه الرواية من محاججة مقولة «الآباء يأكلون الحصرم» من خلال تقديم رؤيا مستقبلية لإسرائيل التي يعيش فيها الأبناء الذين يضرسون كدولة فقيرة وحارّة ومهزومة، دولة فقدت حيويتها وتجردّت من كل شيء.

ولا يستطيع قارئ الروايات الثلاث «الثالث» و«٢٠٢٣» و«جبالًا أرى» أن يتحرّر من الانطباع بأنه إذا كان الواقع الإسرائيلي المعيش الحالي هو النتيجة التراكمية لتطورات كل الماضي الذي سبقه، والبداية التي يمكن التأسيس عليها لما هو قادم، أو المدخل الوحيد المُتاح إلى المستقبل، فإن معرفة إلى أين سيؤدي ذلك المدخل الوحيد على وجه التحديد، لا بُدّ من أن تكون مستندة إلى تشخيص المشكلات الراهنة الكبرى ومحاولة استكشاف حجمها المستقبلي عن طريق منحها كامل وزنها التاريخي.

وليس بغير دلالة أن الرواية الثالثة («جبالًا أرى») تتناص مع نبوءات إرميا وخاصة قوله في الإصحاح الرابع «نظرت إلى الأرض وإذا هي خربة وخالية وإلى السموات فلا نور لها. نظرت إلى الجبال وإذا هي ترتجف وكل الآكام تقلقلت. نظرت وإذا لا إنسان وكل طيور السماء هربت. نظرت وإذا البستان برية وكل مدنها نُقضت من وجه الرب من وجه حُمُوّ غضبه».

تقول الحكاية المتداولة إن إرميا أحد أنبياء بني إسرائيل بعد إشعياء. كان مؤمنا، صالحا، ورعا، زاهدا، قديسا، كثير البكاء من

خشية الله، فعُرف بالبكّاء. بعث به الله إلى بني إسرائيل بعد أن عصوا أوامره، وأظهروا المعاصي، وقتلوا الأنبياء والصالحين، ليهديهم ويرشدهم ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحذرهم من غضب الجبار، فوقف بكل حزم أمام شركهم ومظالمهم الاجتماعية، فكانت مدة خدمته ٤١ عامًا، قابلوه بالعصيان والتمرد والتكذيب، ثم ألقوا القبض عليه وسجنوه، وذلك في عهد ملكهم صدقياهو. وبعد أن مكث في السجن عشرة أعوام هاجمهم نبوخذ نصر وجحافل عساكره، فنزل في أراضيهم، وبطش بهم، وقتل منهم جمعا غفيرا، وخرب ديارهم، وسبى الآلاف منهم، ثم أمر بهدم بيت المقدس، وأسر صدقياهو الملك، وأصدر أمرا بإلقاء القاذورات والجيف في معابدهم. ولما علم نبوخذ نصر بوجود إرميا في أحد سجون بني إسرائيل، وكونه من الأنبياء الذين أرسلهم الله إليهم ليرشدهم ويهديهم إلى طريق الحق والصواب، ولكنهم كذبوه وعذبوه ثم حبسوه، أمر بإطلاق سراحه من السجن، وأحضره لديه وقال له: أكنت تحذر قومك مما أصابهم؟ فقال إرميا: نعم، فإن الله أرسلني إليهم فكذبوني، قال نبوخذ نصر: كذبوك وضربوك وسجنوك؟ قال: نعم، قال نبوخذ نصر: بئس القوم، قوم كذبوا نبيهم، وكذبوا رسالة ربهم، ثم خيره بين المجيء معه أو البقاء ففضل أرميا البقاء في بلاده، فتركه بعد أن أحسن إليه.

إجمال

مع انتهاء العقد الأول من الألفية الثالثة تحوّل نمط الأدب الديستوبي إلى ما يشبه الظاهرة في الكتابة الأدبية الإسرائيلية.

والأمر الأكيد أن التوقف عند هذه الظاهرة وأمام تأويلاتها يحتاج إلى ما هو أوسع من هذا المقام.

مع ذلك ليس من المبالغة رؤية أن لهذه الظاهرة تعبيرها الاجتماعي والثقافي ولها شهادتها المخصوصة على المجتمع، وهذا ما سعينا إلى استجلائه في عجالة.

يمكن الإشارة أيضًا إلى أن علاقة نصوص كتاب هذه الروايات بواقعهم هي علاقة متعدية.

والذي لا شك فيه أن هؤلاء الكتاب من وراء تصوير الكابوس القادم برسم ما هو قائم، يهدفون إلى حفز أي معارضة ممكنة ضد تلك الديستوبيا.

وهكذا، وبموجب ما بدأنا به هذا المقال، قد لا يتعيّن على الكاتب تشييد أيام قادمة وواعدة، بيد أنه من خلال استشراف كل ما يتضّاد مع مثل هذه الأيام من إحالات الزمان الراهن يحثّ غيره على تشييدها وربما ليس عبر الاكتفاء بالأقوال والكلمات فقط.